مراحل نشأة الكلام الانساني

الدكتور جعفر دك الباب
الاستاذ في معهد اللغة والادب العربي
- جامعة الجزائر -

دعونا في مقالة « الصوامت والصوائت في العربية » (1) الى تبني المنهج التاريخي العلمي في دراسة اللغات . واشرنا الى ان الاسس النظرية لهذا المنهج تنبع من تقاليد علم اللغة العربية (التي استنبطناها لدى دراسة تاريخ الابحاث اللغوية العربية على ضوء النظريات اللغوية الحديثة) وتستند بالتحديد الى اتجاه مدرسة ابي علي الفارسي اللغوية التي بلوره ابن جني وعبد القاهر الجرجاني في نظريتين لغويتين متتاميتين .

وحددنا في مقالة « الخصائص المميزة لاصل الكلام الانساني » (2) الصفات الموضوعية التي يجب أن يتصف بها أصل أي كلام انساني ، وهي التالية :

1 - ان يكون تعبيرا عما يمكن ادراكه بالعين والاذن معا ، اي ان يكون مشخصا جدا ومحددا بحاستي السمع والبصر بآن واحد .

2 - ان يكون من الناحية الصوتية كلمة واحدة ، تفيد من ناحية المعنى كلاما تاما اي جملة .

3 - ان يكون مؤلفا من مجموعة من الاصوات غير المنفصلة بعضها عن بعض ، فيلفظ في مقطع صوتي واحد . وعلى ضوء تلك الصفات الموضوعية لاصل الكلام الانساني ، قمنا في مقالة « تحديد أصل الكلام الانساني » (3) بتعيين الصيغة اللغوية - الاصل للكلام الانساني . وقررنا ان الصيغة الشخصية

---

(1) المنشورة في مجلة « اللسان العربي » - المجلد التاسع عشر - الجزء الاول لعام 1982 .

(2) المنشورة في مجلة « المعرفة » بدمشق ، العدد 229 آذار (مارس) 1981 .

(3) المنشورة في مجلة « المعرفة » بدمشق - العدد 237 تشرين الثاني (نوفمبر) 1981 .

للمصرفة للفعل في الزمن الماضي-للشخص الثالث المستعملة في خبر غير ابتدائي هي أصل للكلام الانساني.

ونعود في هذه المقالة الى البحث في نشأة الكلام الانساني وذلك للكشف عن المراحل والاطوار التي مرت بها . كما سنبحث مجددا في الصيغة اللغوية ـ الاصل للكلام الانساني .

أولا ـ مراحل تشكل النظام اللغوي واكتماله :

. يقضي المنهج التاريخي العلمي بأن يقوم البحث النظري العام في نشأة اللغات على التلازم في الوجود بين اللغة والتفكير ووظيفة الاتصال . وبما أن اللغة الصوتية (لغة الكلمات) كانت دائما اللغة الانسانية الاصلية كوسيلة لاتصال الناس بعضهم ببعض ، فان اللغة في نشأتها الاولى كانت منطوقة (4) .

ولما كان النظام اللغوي يتألف من جانبين : صوتي (مادي) ودلالي (معنوي) ، فمن الطبيعي أن ينطلق البحث في نشأة اللغات من تحليل الجانب المادي (الصوتي) للغة ، لينفذ من خلاله الى تحليل الجانب الدلالي . واذا أخذنا بالاعتبار أن خطر السير العام لتطور التفكير الانساني انطلق من المشخص المحدد واكتمل بالانتقال الى المجرد العام ، يتبين لنا أن ادراك العلاقة الذهنية بين الصوت وما يرمز اليه كان البداية الاولى في تكوّن التفكير الانساني . ويعني ذلك بالضرورة أن الكلام الانساني قد مر بطور أولي كانت فيه الصيغة اللغوية ـ الاصل للكلام الانساني عبارة عن محاكاة لاصوات الحيوان والطبيعة ، لان تلك المحاكاة كانت بمثابة قرينة تساعد الانسان البدائي القديم في الادراك الذهني للعلاقة بين الصوت وما يرمز اليه ، بحيث ينبثق المعنى من الصوت بشكل يكاد يكون عفويا في الموقف الكلامي الذي يرتبط به ، مما يجعل الصيغة اللغوية ـ الاصل للكلام الانساني ـ تؤدي وظيفة اتصال.

ويعني ذلك أن تلك الصيغة كانت بالضرورة صيغة لغوية حقيقية تؤدي وظيفة اتصال ولم تكن مطلقا صيغة مثالية مفترضة غير مرتبطة بوظيفة الاتصال .

تقسم الكلمات في اية لغة الى مجموعتين كبيرتين :

أ ـ كلمات مستقلة بالفهم
autosemantic WORDS

ب ـ كلمات غير مستقلة بالفهم
Syntactic WORDS

وتبعا لوجود امكانية للتعبير عن الربط الاسنادي بواسطة صيغة الكلمة المستقلة بالفهم وحدها بحيث تفيد جملة وتؤدي بالتالي وظيفة اتصال . يمكن تقسيم جميع الكلمات المستقلة بالفهم الى فئتين :

أ ـ الصيغ الشخصية المصرفة للفعل (ويقابلها الفعل العربي) .

ب ـ جميع الكلمات المستقلة بالفهم ما عدا الصيغ الشخصية المصرفة للفعل (ويقابلها الاسم العربي) .

ان الكلمات من الفئة (ب) ليست كلمات ـ جملا ، لذا لا تتوافر فيها الخاصة الثانية من الخصائص المميزة لاصل الكلام الانساني ، ولا تصلح بالتالي ان تكون

---

(4) ارجع الى مقالة « الخصائص المميزة لاصل الكلام الانساني » المشار اليها اعلاه .

صيغا لغوية لاصل الكلام الانساني • أما الكلمات من الفئة (أ) فيمكن أن تكون كلمات ـ جملا ، وبذا تتوافر فيها الخاصة الثانية من الخصائص المميزة لاصل الكلام الانساني ، ويمكنها من حيث المبدأ أن تكون صيغا لغوية لاصل الكلام الانساني ، اذا توافرت فيها الخاصتان الاولى والثالثة • وكنا قد قررنا أن الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي الخاصة بالشخص الثالث والمستعملة في خبر غير ابتدائي هي الصيغة اللغوية ـ الاصل للكلام الانساني • واشرنا الى أن تلك الصيغة ـ الاصل كانت تلفظ في مجموعة واحدة من الاصوات غير المنفصلة بعضها عن بعض ، لان اعضاء النطق لدى الانسان القديم لم تكن تسمح له بالنطق بشكل مغاير(5) وهذا يعني أن الصيغة ـ الاصل للكلام الانساني كانت في البداية تحاكي بالضرورة أصوات الحيوان •

اننا نرى ـ انطلاقا من المنهج التاريخي العلمي ـ أن الخط العام لتشكل النظام اللغوي واكتماله ، ابتداء من الفعل ـ الاصل وانتهاء بنظام كامل للاصوات والدلالات ، هو التالي :

1 ـ الانتقال من مجموعة الاصوات المندمجة بعضها ببعض الى مجموعة الاصوات المنفصلة بعضها عن بعض •

2 ـ الانتقال من الكلمة ـ الجملة الى الجملة المؤلفة من كلمات منفصلة •

3 ـ الانتقال من التفكير القائم على مفاهيم مشخصة جدا الى التفكير القائم على مفاهيم مجردة تماما •

تطرق الدكتور علي عبد الواحد وافي الى بحث (المراحل الاولى التي اجتازتها اللغة الانسانية الاولي) (6) •

نذكر أن اللغة نشأت ناقصة ساذجة مبهمة في نواحي أصواتها ومدلولاتها وقواعدها ، ثم سارت بالتدريج في سبيل الارتقاء • واشار الى أن الباحثين اختلفوا اختلافا كبيرا في بيان المراحل التي اجتازتها اللغة الانسانية ، ونظروا الى الموضوع من أربع نواح هي التالية :

أ ـ الاصوات •

ب ـ دلالة المفردات على معان جزئية أو كلية

ج ـ ظهور أقسام الكلم •

د ـ قواعد الصرف والنحو •

أ ـ البحث في مراحل اللغة الانسانية من الناحية الصوتية : ذكر د • وافي أن هذا البحث يستهدف الكشف عما كانت عليه أصوات اللغة الانسانية من مبدأ نشأتها وعن مراحل ارتقائها • وميز ثلاث مراحل هي :

---

(5) ارجع الى مقالة (تحديد اصل الكلام الانساني) المشار اليها أعلاه •

(6) (علم اللغة) ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ الطبعة السابعة / ص ـ 110 ـ 118 /

1 ـ **مرحلة الصراخ** ، حيث لم يكن في أصوات اللغة الانسانية أصوات صائتة ولا أصوات صامتة(7) . وانما كانت مؤلفة من أصوات مبهمة تشبه أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعال وأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والاشياء .

2 ـ **مرحلة المد** ، حيث ظهرت الاصوات الصائتة في اللغة الانسانية .

3 ـ **مرحلة المقاطع** ، حيث ظهرت الاصوات الصامتة .

اننا نرى أن الكلام المكون من مجموعة أصوات مندمجة كان وسيلة الاتصال بالنسبة للانسان البدائي في مرحلة نشأة أصل الكلام الانساني . وقد تميزت في تلك المرحلة مجموعات صوتية مندمجة تتمتع كل مجموعة منها بمعنى مستقل نسبيا هو معنى فعل ـ أصل . وكانت الكلمة تحمل معنى الجملة ، لان الكلام الانساني في نشأته الاولى لم يكن يشتمل الا على الكلمات ـ الجمل . ولم تتبلور المجموعات الصوتية ذات المعنى المستقل في كلمات منفصلة ـ يمكن أن تتشكل من تاليفها جمل تستطيع أن تعبر عن مفاهيم ومحاكمات مختلفة ـ الا في مرحلة لاحقة من التطور ، حين ظهر الكلام المكون من أجزاء منفصلة . ويعني هذا أن نشأة الكلام الانساني مرت بمرحلتين صوتيتين متميزتين :

المرحلة الاولى ـ مرحلة الكلام المكون من اجزاء متصلة : ولم تتميز بعدم وجود وحدات صوتية مستقلة فحسب ، بل تميزت أيضا بشكل أو بآخر بعدم تبلور مفردات اللغة المختلفة بشكل دقيق . ولم تكن توجد (ولم يكن بالامكان أن توجد) في تلك المرحلة كلمات تتميز بعضها عن بعض من حيث البنية الصوتية والمعنى ، لانه لم تكن توجد مفاهيم مجردة . أما التعبير عن المضمون المشخص والمضمون المجازي الظاهر للافكار (التي لا تتعدى كونها مجموعة من التصورات والاحاسيس عن الاشياء التي ينصب عليها الفعل ، أو عن الوسائل اللازمة للوصول الى تلك الاشياء أو عن الهدف من الفعل ونحوه) فكان يتم في تلك الفترة بواسطة مجموعات من الاصوات غير المتميزة أو المتميزة قليلا بعضها عن بعض .

المرحلة الثانية ـ مرحلة الكلام المكون من اجزاء منفصلة : لقد تعرض نشاط دماغ الانسان التحليلي ـ التركيبي الى تغيير جوهري منذ الفترة التي سبقت مباشرة ظهور الكلام المكون من أجزاء منفصلة ، حين بدأت تبرز بالفعل بعض ملامح الكلام المؤلف من أجزاء منفصلة . وتم ذلك عندما بدا كل من المتكلم والمخاطب (السامع) يميز ضمن الاصوات المندمجة بعض العناصر التي يتالف الكلام منها والتي استخدمت فيما بعد كاجزاء منفصلة في الجملة .

ونستنتج من ذلك أن الكلمة لم تكن بداية الكلام المكون من أجزاء منفصلة ، بل كانت نتيجة لتشكل

---

(7) يستخدم د . وافي مصطلح (اصوات المد) بدلا من (الاصوات الصائتة) و (والاصوات الساكنة) بدلا من (الاصوات الصامتة) .

الكلام المؤلف من أجزاء منفصلة وثمرة لتطور المجتمع البشري خلال آلاف السنين • ويعني ذلك أن الكلمة والجملة نشأتا بطريق التطور ، وان الوحدة الحقيقية للكلام لم تكن الكلمة بل كانت الجملة • هذا ويفترض وجود كل من الكلمة والجملة وجود الاخرى ، لان وجود كل منهما يعتبر شرطا لوجود الاخرى • فالعلاقة بين الكلمة والجملة هي العلاقة بين الجزء والكل : فالكل لا يتالف من مجرد اجتماع الاجزاء الجاهزة المكونة له ، بل يتالف من الاجزاء التي نحصل عليها نتيجة تفكك الكل ، كما أن الكل يتطور مع تطور الاجزاء • والخط الاساسي لذلك التطور هو الاتجاه في السير بشكل عام من التركيبات غير القابلة للتجزئة أو التي تتجزأ قليلا الى تركيبات قابلة للتجزئة الى أجزاء محددة المعنى بشكل أو آخر ، وتعبر عن مفاهيم ، ويمكن أن ترتبط بعضها ببعض وفقا لضوابط معينة •

وعلى ضوء ذلك ، سنعمد الى مناقشة المراحل الثلاث (الصراخ ثم المد ثم المقاطع) المشار اليها أعلاه •

مرحلة الصراخ : هي مرحلة الكلام المكون من أجزاء متصلة • ولم يكن الكلام فيها يشتمل على وحدات صوتية مستقلة ، بل كانت الكلمة ـ الجملة تتالف من مجموعة صوتية مندمجة شبيهة باصوات الحيوان • ويعني ذلك أن الاصوات اللغوية لم تكن تعرف بعد الاصوات الصائتة والاصوات الصامتة كوحدات صوتية مستقلة •

مرحلة المد : هي مرحلة انتقال الى الكلام المكون من أجزاء منفصلة ، أي انها الفترة الاخيرة من مرحلة الكلام المكون من أجزاء متصلة • وبدأت تتميز فيها في الكلام الاصوات الصائتة ، مما أدى الى خلخلة وحدة المجموعة الصوتية المندمجة التي تألفت منها الكلمة ـ الجملة •وكان ذلك تمهيدا ضروريا مكن من ظهور نوع جديد للكلمة هو الكلمة ـ المتصلة التي لا تؤلف جملة وحدها، ونوع جديد للجملة هو الجملة المؤلفة من كلمتين (ثم أكثر) متصلتين لفظا عن طريق التعاقب في النطق وقد تتالف كل منهما من وحدة صوتية مندمجة •

مرحلة المقاطع : هي مرحلة الكلام المكون من اجزاء منفصلة • وقد تميزت الصوائت فيها نهائيا في الكلام وتبلورت كوحدات صوتية متميزة • وأدى ذلك بدوره الى بلورة الاصوات الصامتة كوحدات صوتية مستقلة ومتميزة • وبذا اكتمل تشكل النظام الصوتي للغة • وظهر بالنتيجة نوع جديد للكلمة هو الكلمة ـ المنفصلة التي لا تؤلف وحدها جملة والتي يمكن أن تتالف من أكثر من مقطع صوتي واحد ويشتمل كل مقطع منها على صوت صائت • كما ظهر نوع جديد للجملة هو الجملة المؤلفة من كلمتين (ثم أكثر) منفصلتين لفظيا ومرتبطتين بالاسناد الى بعضهما بعضا •

ب ـ البحث في مراحل اللغة الانسانية من ناحية دلالة المفردات على معان جزئية أو كلية :

ذكر د • وافي ان هذا البحث يستهدف بيان أيهما أسبق ظهورا من الآخر • وأورد أن فريقا من العلماء وعلى رأسه مكس مولر يرى أن اللغة الانسانية قد بدأت بالفاظ دالة على معان كلية ، ثم انشعبت عن هذه الالفاظ

الكلمات الدالة على المعاني الجزئية • بحث مولر في اصول الكلمات في اللغات الهندية الاوربية • وظهر له ان مفردات هذه اللغات جميعها ترجع الى خمسمئة أصل مشترك ، وأن هذه الاصول تمثل اللغة الانسانية الاولى التي انشعبت منها هذه الفصيلة ، فهي لذلك تمثل اللغة الانسانية في اقدم عهودها • وتبين له من تحليل هذه الاصول انها تدل على معان كلية •

وقد أشار د • وافي الى أن أكبر خطأ وقعت فيه هذه النظرية هو ذهابها الى أن تلك الاصول الخمسمئة تمثل اللغة الانسانية الاولى • فهذه الاصول تدل على معان كلية ، ومن الواضح أن ادراك المعاني الكلية يتوقف على درجة عقلية لا يتصور وجود مثلها في فاتحة النشأة الانسانية• وقد أجمع علماء الاتنوغرافيا الذين قاموا بدراسة الامم البدائية في أمريكا وأستراليا وافريقيا على ضعف عقلياتها بهذا الصدد وعجزها عن ادراك المعاني الكلية في كثير من مظاهرها • وكان لهذه العقلية صدى كبير في لغاتها ، فلا نكاد نجد في كثير منها لفظا يدل على معنى كلي • لذا يرى المحدثون من علماء اللغة أن الاصول الخمسمئة المشار اليها لا تمثل اللغة الانسانية الاولى في شيء ، بل انها بقايا لغة حديثة قطعت شوطا كبيرا في سبيل الرقي والكمال ، ولم تصل اليها الامم الا بعد أن ارتقت عقلياتها ونهض تفكيرها •

اننا نرفض نظرية مكس مولر (القائلة بأن اللغة الانسانية قد بدأت بالفاظ دالة على معان كلية ثم انشعبت عنها الكلمات الدالة على المعاني الجزئية) ، لانها تناقض الخط العام لبداية تشكل النظام اللغوي واكتماله الذي يقوم على مبدأ الانتقال من التفكير القائم على مفاهيم مشخصة جدا الى التفكير القائم على مفاهيم مجردة تماما • لذا فاننا نؤكد ، انطلاقا من المنهج التاريخي العلمي ، أن المفردات في المرحلة الاولى (مرحلة الكلام المكون من أجزاء متصلة) لم تكن قد تبلورت بشكل دقيق • فكانت الكلمة ـ الجملة ذات معنى واحد مرتبط بسياق الحياة الواقعية • أما في المرحلة الثانية (مرحلة الانتقال الى الكلام المكون من أجزاء منفصلة) فقد بدأت الكلمة ـ المتصلة تبتعد بالتدريج عن ارتباطها بسياق الحياة الواقعية وعن التعبير المشخص عن الحقائق المرئية والمسموعة • لذا برزت حاجة ملحة لوجود نظام قواعدي للغة •

وفي المرحلة الثالثة (مرحلة الكلام المكون من أجزاء منفصلة) أصبحت الكلمات منفصلة بعضها عن بعض تماما ، وتعبر عن مفاهيم عامة مجردة ومحاكمات مختلفة •

جـ ـ البحث في مراحل اللغة الانسانية من ناحية ظهور أقسام الكلم :

ذكر د • وافي أن هذا البحث يستهدف بيان أسبقية ظهور كل من الاسم والصفة والفعل والحرف في اللغة الانسانية ، وان اشهر نظرية بهذا الصدد هي نظرية الاستاذ ريبو التي تقرر ان الصفة هي أول ما ظهر في اللغة الانسانية وتلتها أسماء المعاني وأسماء الذوات ، ثم ظهرت الافعال ولختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف • وقد انتقد د • وافي هذه النظرية لانها تقرر أن الصفات كانت أسبق ظهورا في اللغة الانسانية من أسماء الذوات •

اننا نرفض نظرية ريبو لان الخط العام لتشكل النظام اللغوي واكتماله يقضي بالانتقال من الكلمة ـ الجملة الى الجملة المؤلفة من كلمات منفصلة · وكان هذا الخط العام للتطور اللغوي موازيا في الوقت نفسه للانتقال من التفكير القائم على مفاهيم مشخصة جدا الى التفكير القائم على مفاهيم مجردة تماما · لذا فان الصفات واسماء المعاني التي تعبر عن مفاهيم مجردة تماما لا بد أن تكون نشأتها في آخر مراحل تطور اللغة واكتمالها وليس في المراحل الاولى لنشأة اللغة الانسانية · هذا وقد أشرنا أعلاه الى أن جميع الكلمات المستقلة بالفهم (ما عدا الصيغة الشخصية المصرفة للفعل) لا تصلح ان تكون صيغا لغوية لاصل الكلام الانساني · كما حددنا ان الصيغة الاولى ـ الاصل للكلام الانساني هي صيغة الفعل المصرفة في الزمن الماضي للشخص الثالث المستخدمة في خبر غير ابتدائي ، لانها الصيغة التي تمثل الكلمة ـ الجملة المرتبطة بسياق كلامي واحد مشخص ·

د ـ البحث في مراحل اللغة الانسانية من ناحية تتعلق بقواعد الصرف والنحو : ذكر د · وافي أن أشهر نظرية بهذا الصدد هي النظرية التي قال بها شليغل وتابعه فيها جمهرة كبيرة من علماء اللغة · وهي تقسم اللغات الانسانية من هذه الناحية الى ثلاثة اقسام :

1 ـ اللغات المتصرفة ـ أي المعربة / flexional /. تمتاز من ناحية الصرف بان كلماتها تتغير معانيها بتغير ابنيتها · ومن ناحية النحو تمتاز بان اجزاءها يتصل بعضها ببعض بروابط مستقلة تدل على مختلف العلاقات·

2 ـ اللغات اللصقية / agglutinative / تمتاز من ناحيتي الصرف والنحو بأن تغير معنى الاصل وعلاقته بما عداه من أجزاء الجملة يشار اليهما بحروف تلصق به · بعض هذه الحروف ليس له دلالة مستقلة ، ولكن معظمها كان في الاصل ذا دلالة ثم فقدها وأصبح لا يستخدم الا كحروف مساعدة للدلالة على تغيير معنى الاصل الذي تلصق به أو للاشارة الى علاقته بما عداه من أجزاء الجملة ·

ـ اللغات العازلة/ isolating / أو غير المتصرفة monosyllabic/. تمتاز من ناحية الصرف بأن كلماتها غير قابلة للتصرف لا عن طريق تغيير البنية ولا عن طريق لصق حروف بالاصل ، وكل كلمة تلازم صورة واحدة وتدل على معنى ثابت لا يتغير · وتمتاز من ناحية النحو بعدم وجود روابط بين اجزاء الجملة للدلالة على وظيفة كلٍ منها وعلاقته بما عداه · وانما توضع هذه الاجزاء بعضها بجانب بعض ، وتستفاد وظائفها وعلاقاتها من ترتيبها أو من سياق الكلام · وسميت هذه اللغات (بغير المتصرفة) لان كلماتها لا تتصرف ولا يتغير معناها ، و (بالعازلة) لانها تعزل اجزاء الجملة بعضها عن بعض ولا تصرح بما يربطها من علاقات ·

ويرى اصحاب هذه النظرية أن اللغة الانسانية من مبدأ نشأتها كانت من النوع الثالث (غير متصرفة)، ثم ارتقت الى النوع الثاني (لصقية) ، ولم تصل الى حالة النوع الاول (متصرفة) الا في آخر مرحلة قطعتها في هذا السبيل ·

اننا نرى ، انطلاقا من المنهج التاريخي العلمي ، أن الكلمات نشأت تاريخيا بنتيجة التطور ، وكانت صيغتها في البدء ثابتة (غير متغيرة أي مبنية) ، ولم تكن تشتمل على أي دلائل شكلية تشير الى الجنس أو العدد أو الشخص أو أقسام الكلم أو حالة الاعراب • كما أن الكلمات في بداية نشأة الكلام الانساني لم تكن تشكل نظاما صرفيا من الصيغ المتعددة ، بل كانت كل كلمة تمتلك صيغة وحيدة • فلم تكن توجد صيغ متعددة للكلمة الواحدة ، بل كانت هناك صيغ متعددة لكلمات متعددة • ولم تكن الكلمات ترتبط فقط بشكل وثيق بسياق كلامي واحد ، بل كانت ايضا تدخل في سياق كلامي واحد مرتبط بالنشاط الواقعي للانسان ، أي أن معنى الكلمة يحدده مجمل الحقائق التي يتوصل الانسان اليها بشكل شعوري • وهذا يعني أنه لم تكن توجد حينئذ الكلمة المفردة المجردة ذات المعاني المتعددة ، بل كانت توجد الكلمة ذات المعنى الواحد المحدد والمرتبطة بسياق الحياة الواقعية •

ثم اخذ الأمر يتغير بشكل جوهري نظرا لان عملية اتصال الناس بعضهم ببعض بدأت تنفصل بالتدريج عن عملية نشاطهم في الواقع المحيط بهم وصارت تحمل صفة مستقلة نسبيا • ولكن ذلك لم يمنع استمرار الارتباط المباشر لعملية الاتصال بالنشاط الواقعي المرتبط بالاشياء التي توجد ضمن مجال ما يراه ويسمعه الناس المتخاطبون • وبرزت الحاجة الملحة لوجود نظام قواعدي للغة لدى الابتعاد عن التعبير المشخص عن الحقائق المرئية والمسموعة •

ان الحاجة لوجود وسائل تمكن من تحديد معاني أصول الكلمات ـ التي صارت تتشكل الجمل منها عن طريق التسلسل المتعاقب للكلمات غير المتغيرة ـ قد هيأت الظروف لنشأة النظام القواعدي للغة • وقد تبلور النظام القواعدي واخذ شكلا ثابتا في الشواهد الكتابية القديمة مع اكتمال تبلور الفكر الانساني المجرد • وبذا يمكن القولَ ان الكلام المكون من أجزاء منفصلة بالمعنى الكامل للكلمة لم يكتمل الا حين اكتمل النظام القواعدي للغة • في المرحلة الاولى من نشأة الكلام الانساني كانت للكلمات معان مشخصة فقط ، ولم يكن لها سوى ذلك المعنى • كما ان الكلمات لم تكن تحمل أي معنى قواعدي ولم يكن لها بالتالي صيغ قواعدية مختلفة • وبنتيجة عمل الدماغ التجريدي الطويل •• تعلم الناس أن يحللوا ويركبوا المفاهيم ـ علاقات المكان بالنسبة للاشياء ، وعلاقات العدد •• ونحوه • وقد بلغ الكلام المكون من أجزاء منفصلة ذروة اكتماله حين بلغ تطور اللغة والتفكير مرحلة نشأت فيها اقسام الكلم المنفصلة ، وتبلورت كمفهوم قواعدي حالات الاعراب التي تعبر عن العلاقات بين الكلمات وبالتالي بين الاشياء في العالم الموضوعي (الخارجي) •

ونعود الآن الى مناقشة نظرية شليخل •

أ ـ اللغات العازلة أو غير المتصرفة : تبين لنا أن الكلام الانساني في نشأته الاولى لم يكن يشتمل الا على الكلمات ـ الجمل التي تمتلك صيغة واحدة ليس فيها ما يشير الى الجنس أو العدد أو الشخص أو أقسام الكلم أو حالة الاعراب • وسمينا هذه المرحلة الاولى التي مر بها الكلام الانساني **مرحلة الكلام المكون من أجزاء متصلة** • وقد كانت بنية اللغات في تلك المرحلة غير متصرفة •

ب ـ **اللغات اللصقية** : قررنا أعلاه أن الكلام المكون من أجزاء منفصلة بالمعنى الكامل للكلمة لم يكتمل الا حين اكتمل النظام القواعدي للغة · ويعني ذلك أن الكلام الانساني قد مر بمرحلة ثانية سميناها **فترة الانتقال الى الكلام المكون من أجزاء منفصلة** · وقد كانت بنية اللغات في تلك الفترة لصقية لان الجملة صارت فيها تتالف عن طريق اللصق من كلمات غير متغيرة من ناحية، وغير منفصلة بعضها عن بعض تماما من ناحية ثانية· ـ

ج ـ **اللغات المتصرفة او المعربة** · كانت مرحلة **الكلام المكون من أجزاء منفصلة** هي المرحلة الثالثة التي مر بها الكلام الانساني · ونتيجة لاكتمال النظام القواعدي للغة ، تميزت بظهور الكلمات المنفصلة وبروز الجمل التي تتشكل من تاليف تلك الكلمات لذا صارت بنية اللغات في هذه المرحلة متصرفة ·

ولا بد من الاشارة هنا الى أن تطور بنية اللغات أخذ أشكالا مختلفة · فبعض اللغات سار وفق هذا الاتجاه في التطور ، في حين أن لغات أخرى بقيت عازلة وتطور نظامها (بنيتها) بتغيير طريقة العزل فيها ، كما بقيت لغات أخرى لاصقة وتطور نظامها بتغيير طريقة اللصق فيها · ونرى أن جميع أنماط اللغات (العازلة واللاصقة والمتصرفة) هي أنظمة لغوية مكتملة ، وقادرة على أن تكون وسيلة للاتصال والتعبير عن الافكار · لذا فاننا نرفض بشكل جازم تصنيف بعض اللغات على أنها راقية وتصنيف لغات أخرى على أنها منحطة (كما فعل شليغل) ·

ونؤكد أخيرا أن اللغة نظام كامل للاصوات والدلالات · ويعني ذلك أن مراحل اكتمال اللغة يجب ألا تعكس فقط مراحل اكتمال النظام القواعدي للغة (صرف اللغة ونحوها) ، بل يجب أن تعكس أيضا مراحل اكتمال نظام الاصوات اللغوية ودلالة المفردات في اللغة واقسام الكلم فيها ·

ثانيا ـ عودة الى الصيغة اللغوية ـ الاصل للكلام الانساني :

كنا قد أثبتنا أن **الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي للشخص الثالث المستعملة في خبر غير ابتدائي هي أصل الكلام الانساني** · وفي ضوء المراحل التي حددناها لتشكل النظام اللغوي واكتماله ، سنعمد أدناه الى تحليل الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي الخاصة بالشخص الثالث والمستعملة في خبر غير ابتدائي · لدى تحليل تلك الصيغة يتبين لنا ما يلي :

1 ـ **من الناحية الصوتية** : يمكن أن تكون الصيغة اللغوية ـ الاصل عبارة عن محاكاة لاصوات الحيوان او الطبيعة · ولما كانت حنجرة الانسان البدائي القديم شبيهة بحنجرة بعض فصائل الحيوان من حيث بنيتها التشريحية ـ وفيزيولوجية عملها في اصدار الاصوات، فاننا نرجح أن الانسان قلد أول ما قلد أصوات تلك الفصائل من الحيوان التي تصدر أصواتا يمكن لجهاز التصويت لديه محاكاتها · لذا فان الصيغة اللغوية ـ الاصل ، التي قلد فيها الانسان أصوات تلك الفصائل من الحيوان ، كانت تتالف من مجموعة أصوات مندمجة بعضها ببعض ويتم النطق بها في مقطع صوتي واحد ·

ثم انتقل الانسان في فترة لاحقة تطورت فيها امكاناته النطقية الى تقليد اصوات بقية فصائل الحيوان واصوات الطبيعة · ولم تعد الصيغة اللغوية ـ الاصل حينئذ تنطق في مقطع صوتي واحد ·

ويعني هذا أن الطور الاول في نشاة الكلام الانساني (الذي كانت فيه الصيغة اللغوية ـ الاصل للكلام الانساني عبارة عن محاكاة لاصوات الحيوان او الطبيعة) قد مر بالضرورة بمرحلتين :

أ ـ المرحلة الاولى : كانت فيها الصيغة اللغوية ـ الاصل عبارة عن محاكاة لاصوات بعض فصائل الحيوان التي تمتلك جهازا للتصويت قريبا من جهاز للتصويت عند الانسان القديم · لذا كانت تلك الصيغة تلفظ في مقطع صوتي واحد ·

ب ـ المرحلة الثانية : ظهرت فيها صيغة لغوية ـ اصل جديدة نتيجة محاكاة اصوات فصائل أخرى من الحيوان لا تملك جهازا للتصويت قريبا من جهاز للتصويت الانساني ، أو نتيجة محاكاة اصوات الطبيعة· لذا كانت الصيغة اللغوية ـ الاصل الجديدة لا تلفظ في مقطع صوتي واحد ، بل تلفظ في أكثر من مقطع صوتي· ولم يدخل الانسان هذه المرحلة الا بعد ان تطور جهاز النطق عنده ، منذ أن تمكن من تحطيم الوحدة الصوتية المندمجة للصيغة اللغوية ـ الاصل الاولى التي ظهرت في المرحلة الاولى نتيجة لمحاكاة اصوات فصائل الحيوان التي أمكنه تقليد أصواتها ·

2 ـ **من حيث وظيفة الاتصال :** تؤدي الصيغة اللغوية ـ الاصل ، في المرحلة الاولى من الطور الاول لنشاة الكلام الانساني ، وظيفة اتصال ضيقة جدا · وذلك لانها ترتبط بموقف كلامي محدد ، يكون فيه كل من المتكلم والمخاطب قد سمع الصوت وشاهد الحيوان الذي قام باصداره · ولا يتحقق ذلك الا في خبر غير ابتدائي · وفي المرحلة الثانية من الطور الاول تتوسع نسبيا دائرة وظيفة الاتصال التي تؤديها الصيغة اللغوية ـ الاصل الجديدة نتيجة لمحاكاة اصوات بقية فصائل الحيوان ومحاكاة أصوات الطبيعة ·

3 ـ **من حيث تلازم اللغة والتفكير :** تمثل الصيغة اللغوية ـ الاصل في المرحلة الاولى من الطور الاول لنشاة الكلام الانساني بداية التفكير الانساني · وذلك بادراك الشخص الثالث (غير المتكلم وغير المخاطب)، وهو الحيوان الذي يصدر الصوت الذي تحاكيه الصيغة اللغوية ـ الاصل · وفي المرحلة الثانية من الطور الاول لنشاة الكلام الانساني يتطور التفكير الانساني نتيجة التوسع في ادراك الشخص الثالث (فصائل اخرى من الحيوان اولا ، ثم الاشياء المتحركة في الطبيعة التي تصدر أصواتا تحاكيها الصيغة اللغوية ـ الاصل الجديدة) ·

ويظهر من التحليل أن وظيفة الاتصال التي تؤديها الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي (الخاصة بالشخص الثالث والمستعملة في خبر غير ابتدائي) ضيقة جدا في الطور الاول لنشاة الكلام الانساني في مرحلتيه الاولى والثانية · وعلى الرغم من ذلك كان لهذه الصيغة دور هام تجلى في البدء باستخدام الاصوات في الكلام الانساني نتيجة محاكاة أ-

للحيوان والطبيعة . كما كان لها دور هام آخر في بداية تكون التفكير الانساني تجلى في ادراك العلاقة بين الصوت والمدلول من جهة ، وفي تمييز الشخص الثالث (غير المتكلم وغير المخاطب) من جهة ثانية .

لذا فان الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي للشخص الثالث المستخدمة في خبر غير ابتدائي كانت ـ على الرغم من وظيفتها المحدودة في الاتصال ـ ضرورية في الطور الاول من نشأة الكلام الانساني . ولكن الحاجة الى التوسع في وظيفة الاتصال التي تؤديها اللغة اقتضت ـ برأينا ـ وجود طور ثان في نشأة الكلام الانساني ظهرت فيه **صيغة لغوية ـ اصل** جديدة تتمتع بامكانات اوسع من الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي للشخص الثالث المستخدمة في خبر غير ابتدائي .

ونرى أن **الطور الثاني في نشأة الكلام الانساني** يتميز بما يلي :

1 ـ **من الناحية الصوتية :** الانتقال من المحاكاة الى عدم المحاكاة ، مما سمح بظهور صيغ لغوية تقوم على علاقة اصطلاحية بين الصوت والمدلول . ونرجح أن يكون الطور الثاني قد مر بمرحلتين :

المرحلة الاولى ـ كانت الصيغة اللغوية الاصل الجديدة تلفظ فيها في مقطع صوتي واحد .

والمرحلة الثانية ـ ظهرت فيها صيغة لغوية ـ اصل جديدة تلفظ في اكثر من مقطع صوتي .

2 ـ **من حيث وظيفة الاتصال :** توسع وظيفة الاتصال بالانتقال من الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي (الخاصة بالشخص الثالث والمستخدمة في خبر غير ابتدائي) . الى **صيغة شخصية مصرفة للفعل خاصة بالطلب (الامر) من الشخص الثاني (المخاطب)** . ومهدت هذه الصيغة الجديدة للانتقال فيما بعد الى صيغة شخصية مصرفة للفعل خاصة بالشخص الاول تستخدم في جواب الطلب في خبر ابتدائي في الزمن غير الماضي (الحاضر والمستقبل). هذا وتبقى الصيغة الشخصية المصرفة للفعل كلمة واحدة من الناحية الصوتية ، وتفيد من ناحية المعنى كلاما تاما اي جملة .

3 ـ **من حيث تلازم اللغة والتفكير :** مع ظهور الصيغة الشخصية المصرفة للفعل الخاصة بالطلب (الامر) ، تم تمييز الشخص الثاني (المخاطب) . ومع ظهور الصيغة الشخصية المصرفة للفعل الخاصة بجواب الطلب ، تم تميز الشخص الاول (المتكلم) . وكان ظهور الصيغة الخاصة بالطلب يعني تحرر الصيغة اللغوية ـ الاصل الجديدة من الصفة الاولى من الصفات الموضوعية لاصل الكلام الانساني في الطور الاول (أن يكون مشخصا جدا ومحددا بحاستي السمع والبصر). وكان ذلك بداية التطور من المحدد المشخص الى المجرد العام .

النتيجة : نستنتج من ذلك ان نشأة الكلام الانساني مرت بطورين :

الطور الاول ـ في الصيغة اللغوية ـ الاصل للكلام

الانساني توجد علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول نتيجة لمحاكاة اصوات الحيوان والطبيعة · والصيغة اللغوية ـ الاصل هي الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي الخاصة بالشخص الثالث والمستخدمة في خبر غير ابتدائي ·

الطور الثاني ـ في الصيغة اللغوية ـ الاصل للكلام الانساني لا توجد علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول والعلاقة بينهما اصطلاحية · والصيغة اللغوية ـ الاصل هي الصيغة الشخصية المصرفة للفعل الخاصة بالطلب (الامر) للشخص الثاني ·

ونرى أن **تطور الصيغة اللغوية ـ الاصل للكلام الانساني في بداية تشكل النظام اللغوي قد أخذ المنحى التالي :**

أ ـ بالنسبة للصيغة اللغوية ـ الاصل في الطور الاول :

1 ـ الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي الخاصة بالشخص الثالث المستخدمة في خبر غير ابتدائي والتي تقوم العلاقة فيها بين الصوت والمدلول على المحاكاة ·

2 ـ الصيغة الشخصية المصرفة للفعل الخاصة بالطلب (الامر) للشخص الثاني ·

3 ـ الصيغة الشخصية المصرفة للفعل الخاصة بجواب الطلب للشخص الاول (المتكلم) والتي تستخدم في الاخبار (في خبر ابتدائي) في الزمن غير الماضي (الحاضر والمستقبل) ·

4 ـ الصيغة الشخصية المصرفة للفعل التي تستخدم في الاخبار (في خبر ابتدائي) في الزمن غير الماضي لبقية الاشخاص (الثاني والثالث) ·

ب ـ بالنسبة للصيغة اللغوية ـ الاصل في الطور الثاني:

1 ـ الصيغة الشخصية المصرفة للفعل الخاصة بالطلب (الامر) للشخص الثاني والتي لا تقوم العلاقة فيها بين الصوت والمدلول على المحاكاة ، بل تقوم على الاصطلاح ·

2 ـ الصيغة الشخصية المصرفة للفعل الخاصة بجواب الطلب للشخص الاول (المتكلم) والتي تستخدم في الاخبار (في خبر ابتدائي) في الزمن غير الماضي (الحاضر والمستقبل) ·

3 ـ الصيغة الشخصية المصرفة للفعل التي تستخدم في الاخبار (في خبر ابتدائي) في الزمن غير الماضي لبقية الاشخاص (الثاني والثالث) ·

هذا وسنعتمد في المقالة التالية الى استخدام المنهج التاريخي العلمي لدى دراسة المعجم العربي · وسنعرض، على ضوء ذلك ، نظرة جديدة الى المعجم العربي تثبت اصالة اللغة العربية وتؤكد أن نظامها اللغوي يعكس جميع المراحل التي مرت بها نشأة الكلام الانساني ·